-5-

العلاقة بين إيران والعراق

قبل قيام الإمبراطورية العربية الإسلامية وبعدها، تعرضت العراق لسلسلة من الغزوات. اختفت المدن عصر الأوسطية وحلت محلها مدن كثيرة، وقُمعت القبائل القديمة وازدهرت أخرى جديدة. كان الآراميون يعيشون في سوريا وفي أجزاء من مناطق «بين الراقدين» منذ القرن الحادي عشر إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وهاجر العرب إلى العراق في العصور القديمة المتأخرة (٥٠٠ قبل الميلاد). لدى الفتح العربي، كان سكان العراق متنوّعين إثنيا. ومع صعود الإمبراطورية الساسانية الإيرانية، آخر إمبراطورية إيرانية قبل الإسلام (٢٢٤- ٦٥١م) شهد العراق هجرات كبيرة إيرانية تشكلت من النخب الإيرانية ومعها قطاع صغير من صغار الفلاحين. وبحلول عام ٦٤٤م، كانت الإمبراطورية العربية تتشكل، فيما تم فتح جميع أجزاء شبه الجزيرة العربية، وجزء من الإمبراطورية الساسانية وإقليمي سوريا ومصر من الإمبراطورية البيزنطية. أدى الفتح العربي إلى أسلمة سكان العراق وتعريبهم واستيعاب سكانها العرب والإيرانيين.

obeikandl.com

وكما أوضحنا فى الفصل الثالث، فمنذ حكم الصفويين (١٥٠١-١٧٢٢) تماهى المذهب الشيعى والمؤسسة الشيعية مع إيران. وفيما بين عامى ١٦٢٣ و١٦٣٨، استولى الصفويون على مدينتى النجف وكربلاء المقدستين من العثمانيين. استمرت الطبيعة الشيعية للمدن الواقعة جنوبى بغداد طوال هيمنة الأتراك العثمانيين (١٥٣٤- ١٦٢٢؛ و١٦٣٨-١٩١٧) والمماليك الجراكسة (١٧٤٩- ١٨٣١)، لكن سياسة العثمانيين كانت تحابى العرب السنة فى تولى مناصب الدولة. أدى تحول إيران إلى المذهب الشيعى إلى صعود رجال الدين الشيعة الأقوياء فى إيران والعراق. نشط رجال الدين النافذون الذين كانوا قد انتقلوا من إيران إلى العراق فى الحياة السياسية والدينية للبلد فى ظل العثمانيين، وظلت تلك العلاقة التاريخية قائمة منذ وقتئذ. لكثير من العائلات الشيعية المرموقة

obeikandl.com

أصول عربية وإيرانية وسورية. تشمل الشخصيات الكبيرة ذات الأصول الإيرانية الحالية آية الله سيد محسن الحكيم الذى كان الزعيم الروحى للشيعة على مستوى الكوكب بين عامى ١٩٥٥ و١٩٧٠؛ وآية الله محمد باقر الصدر الذى أعدمه صدام حسين عام ١٩٨٠؛ وأبا القاسم الخوى وهو من كبار آيات الله الشيعة وتوفى عام ١٩٩٢، وآية الله على السيستانى فى يومنا هذا.

مدينة النجف العراقية هى من أقدس المواقع الشيعية، وكذلك مدينة قم الإيرانية حيث يوجد ضريح السيدة فاطمة المعصومة، وهذه المدن المقدسة مراكز للدراسات الشيعية ويقيم بها رجال الدين الشيعة كزعماء روحيين لطائفتهم، ويؤمها ملايين الزوار الشيعة من المنطقة وخارجها. حدث، فى فترات مختلفة، وأن كان ثمة تنافس بين مدينتى النجف وقم على القيادة

obeikandl.com

الكوكبية للشيعة، وكانت المرجعية الشيعية تنتقل من قم إلى النجف وبالعكس. فى الستينيات، كان آية الله بروجوردى هو المرجع الشيعى وكان يقيم فى قم، وبعد وفاته، انتقلت المرجعية إلى النجف الأمر الذى وجده الشاه فى صالحه إذ تمكن من إطلاق يديه فى شئون البلد دونما تدخل من رجال الدين وأدى ذلك إلى اكتساب النجف مزيدا من الأهمية. وفيما بعد، حظر صدام حسين على المرجعيات سكنى النجف مما قوى من وضع قم إذ انتقل كثير من رجال الدين العراقيين الشيعة إلى إيران. وبعد سقوط صدام، صعد نجم النجف مرة أخرى بصفتها مكان المرجعيات. وكما ذكرنا فى الفصل الثانى، فقد ازداد التقارب بين النجف وقم منذ ٢٠٠٣، وهما الآن مركزان للجدل الدائر حول ما إن كان ينبغى ترك شئون الحكم للحكومات، أم أنها من اختصاص رجال الدين.

من الواضح أن استمرار السمة الشيعية لبعض أجزاء العراق ترتبط جزئياً بوجود النجف وكربلاء، وأيضا بالعلاقات التاريخية والتجارية بين البلدين. فى القرن التاسع عشر، كان كثير من التجار فى بغداد إيرانيين وكثير من هؤلاء يهودا إيرانيين. وتاريخياً أيضا أبقى كثير من الشيعة الذين كانوا يسكنون جنوب العراق ووسطها على روابط اقتصادية وثقافية مع إيران فيما أبقى كثير من العرب السنة فى المناطق الوسطى والوسطى الشمالية على روابط اقتصادية وسياسية وثقافية مع العالم العربى. من الناحية الإثنية فإن غالبية شيعة العراق عرب باستثناء الشيعة الإيرانيين الذين يسكنون البصرة والنجف وكربلاء. بيد أنه من المهم أن نبين أنه على الرغم من غلبة السمات الشيعية فإن هذه المناطق تضم أقليات سنية.

وعلى الرغم من أن المناطق السنية ظلت هى وادى الفرات شرقى بغداد، ودجلة فيما بين بغداد والموصل فإن ثمة أقلية شيعية كبيرة تسكن

هذه المناطق. بعض المستوطنات التركمانية شيعية وبعضها سنية. يسكن الأكراد شمال العراق وشمالها الشرقي وهم من أهل السنة ويتمايزون عن السنة العرب؛ وأيضا ثمة أقلية كردية شيعية. تأثر الأكراد والشيعة العرب والسنة بالصوفية. هناك أيضا مجموعات غير مسلمة من اليهود والمسيحيين واليزيديين والصابئة تسكن مختلف المناطق الحضرية والريفية. وتاريخيا، فإن تلك الجماعات تمازجت في بعض المناطق أكثر من غيرها مما يوضح أن هويات الجماعات المختلفة لا تقوم فقط على أساس ديني. بيد أنه، وحتى سقوط صدام، هيمنت الأقلية السنية العربية على مؤسسات الدولة.

وعلى الرغم من أن الشيعة يشكلون غالبية سكان العراق لكنهم في واقع الأمر يتكونون من جماعات متنوعة. وفي مختلف الحقب التاريخية، اعتنق بعضهم القومية العربية فيما اعتنق آخرون القومية الإيرانية، وأصبح بعضهم أعضاء في حزب البعث فيما انضم البعض الآخر للحزب الشيوعي. لاذ بعضهم بالمناطق الشيعية وقاداتها، الذين هم في غالبيتهم من أصول إيرانية، في محاولة منهم للتغلب على إقصائهم الاجتماعي/ الاقتصادي والسياسي داخل المجتمع العراقي.

أدى اجتياح البريطانيين للعراق واحتلالهم لها ما بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ إلى وحدة صفوف الشيعة والسنة الذين شكلوا حركة مقاومة ضد البريطانيين، وفيما بعد، لعبت مدينة النجف والعلماء الشيعة دورا مركزيا في مقاومة البريطانيين والملك فيصل في عام ١٩٢٤.

منذ العشرينيات صعودا، أثر التصنيع والتحضر في البنية الطبقية والمعايير الثقافية. تفاعلت مختلف المجموعات الإثنية مع بعضها في المناطق الحضرية فيما رأى الكثيرون التمايز الإثني جزءا من سياسة «فرّق تسد» الاستعمارية. في العشرينيات في ظل الملكية، كان الخط

المذهبى الفاصل بين السنة والشيعة يقوم على أساس تمايز طبقى ولم يكن دينيا إذ إن العائلات المهيمنة اقتصاديا واجتماعيا كانت من السنة. كان مدرك المجموعات الشيعية للتهميش متنوعا يتراوح بين الاستغلال الطبقى والتقسيم الحضرى / الريفى والدينى/ العلمانى. كانت غالبية مظالم الشيعة ترتكز على عدم توازن الدولة العراقية، ومعدل تمثيل الشيعة السياسى المنخفض نسبيا، وإقصائهم اقتصاديا وقمعهم سياسيا. بيد أن صفوف الشيعة والسنة توحدت ضد تحكّم البريطانيين فى العراق.

فى الخمسينيات والستينيات، حدث تغير نسبى فى وضع الشيعة الاجتماعى/ الاقتصادى إذ بدأوا يراكمون الثروات ويحتلون مناصب عالية فى مؤسسات الدولة. أصبح التزاوج بين الشيعة والسنة شائعا. بيد أن الفقراء كانوا فى غالبيتهم من الشيعة، وبالنسبة لكثير من الشيعة كانت القومية العربية أيديولوجيا نخبوية تُقوّى من هيمنة السنّة. عمل إصلاح الأراضى فى نهاية الخمسينيات على إقصاء ملايين المزارعين الشيعة عن مزارعهم ورحلوا عنها ليستقروا جنوبى بغداد (مدينة الصدر) وعلى الحواف الشرقية والشمالية للعاصمة. لكن الشيعة منذ الأربعينيات وحتى الستينيات كان لهم مكان بارز فى الحزب الشيوعى ولعبوا دورا مهما فى مواجهة الانقلاب البعثى.

كان لعبدالكريم قاسم، الذى كان والده عربيا سنيا ووالدته كردية شيعية، رؤية إدماجية للعراق. أثناء رئاسته (١٩٥٨– ١٩٦٣) تمتع بعض الشيعة بدرجة نسبية من السلطة السياسية. أدى ظهور «حزب الدعوة الإسلامية» إلى مشاركة بعض السياسيين الشيعة فى الحياة السياسية. أيضا، فى هذه الفترة، ذهبت كتابات محمد باقر الصدر فى مجال

الفلسفة والاقتصاد إلى أن الآراء الشيعية حول العدالة الاجتماعية تتسق مع مفاهيم الماركسية والليبرالية الغربية، ولقيت آراؤه تلك شعبية كبيرة لدى غالبية الشيعة، كما شهدت الفترة ذاتها أيضا إحياء الأحزاب الكردية والشيعية رغم أن قاسم عمل على ألا يتحدى أى تنظيم أو جماعة الجيش أو سلطته. أيضا أتيح التعليم للنساء وحققن درجة من المساواة مع الرجال. قَيَّد قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٥٩ تعدد الزوجات وتم تعيين نزيهة الدليمى فى منصب وزيرة. وبعد الانقلاب على عبدالكريم قاسم، أدى صعود القومية العربية وحزب البعث إلى تهميش الجماعات الشيعية مرة أخرى. بيد أن عددا لا بأس به من الأقليات استمر فى اعتناقه القومية العربية وانضم الكثيرون منهم إلى حزب البعث الذى كانت سمته فى الستينيات هى الشراكة الحقيقية بين الشباب السنى والشيعى من أنصار القومية العربية، بيد أن هذه الشراكة تراجعت فى أواخر الستينيات.

وكما ذكرنا فى الفصل الأول، فى عام ١٩٦٣، عارض عدد من رجال الدين الشيعة إصلاحات الشاه التى كانت تقوض سلطتهم، وبعد سلسلة من التعبير عن الاستياء تم ترحيل آية الله الخمينى إلى العراق حيث أقام فى النجف مع غيره من رجال الدين الشيعة. ومن منفاه هناك، وجّه النقد إلى رجال الدين لموقفهم السلبى من الصهيونية والاستعمار والاستكبار العالمى ودعا إلى الإطاحة بالشاه، وبذلك لعب دورا كبيرا فى ثورة ١٩٧٩. فى عام ١٩٧٩، بدأت مجموعة من شباب الشيعة، باستلهامهم آية الله محمد باقر الصدر وآية الله الخمينى، يناضلون ضد حكومة البعث من خلال حزب الدعوة. اكتسبت هذه المجموعة شعبية فى السبعينيات والثمانينيات، لكن لدى تولى صدام حسين السلطة عام

١٩٧٩، حظر ذلك الحزب وطرد آلافا من الشيعة من النجف وكربلاء، ذهب بعضهم إلى لبنان وسوريا والأردن فيما استقرت غالبيتهم فى إيران. وفى إبريل ١٩٨٠، أعدم صدام محمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى التى كانت عالمة إسلامية مؤثرة. حظر مراسم عاشوراء وطرد آلافا من العرب من ذوى الأصول الإيرانية واعتقل آلافا آخرين. أُرسل المنفيون منهم إلى إيران وتمت مصادرة أملاكهم.

الحرب مع إيران، اجتياح الكويت، العقوبات وسقوط صدام:

بدأت الحرب الإيرانية العراقية فى سبتمبر ١٩٨٠. اعتقد صدام أن الحرب ستكون قصيرة، ينتصر فيها العراقيون ويستعيدون سيادتهم على شط العرب كاملا، تلك المنطقة المتنازع عليها منذ عام ١٩٧٥، كما ستثبت الحرب قدرة العراق كقوة إقليمية على هزيمة الثورة الإيرانية. بيد أن هذه الحرب (١٩٨٠- ١٩٨٨) لم تُضعِف الثورة فى إيران. قُدِّر عدد قتلى تلك الحرب من العراقيين والإيرانيين بمليون ونصف المليون شخص، وقُدِّرت قيمة الدمار الذى ألحقته بالبلدين بـ ١,٢ مليار دولار. دعمت السعودية والكويت والأردن ومصر العراق سياسيا وماليا إذ رأوا فى هذه الحرب حرباً إيرانية/ وشيعية/ سنية. كان جيش صدام الكبير المؤلف من المجندين يتكون من الجنود الشيعة بشكل أساسى فيما كانت القيادات سنية فى غالبيتها، هذا على الرغم من أن عددا من الشيعة المؤيدين لحكم البعث كانوا يتولون مناصب سياسية وعسكرية عليا. ركزت حملة دعاية صدام القوية على الهوية العربية الإسلامية فى مواجهة الإيرانيين غير العرب وكان الهدف هو كسب شيعة العراق ليواجهوا الإيرانيين. بيد أن كتَّابا من أمثال سامى رمضانى يذهبون إلى أن الدولة العراقية لم تكن تقوم على أساس مذهبى أو طائفى، على الرغم من أن سياساتها أنتجت

تأثيرات طائفية. مثلا، كان محمد سعيد الصحاف وزير الإعلام فى عهد صدام، من بين الشيعة الذين ترقوا واحتلوا مناصب مرموقة وكان هو من وصف الشيعة بأنهم عملاء لإيران وقام بتطهير حزب البعث من أعضائه الشيعة.

حاول صدام، طوال سنوات الحرب، من جهة أن يقلب سياسة تهميش الشيعة على المستويين الرمزى والمادى وذلك بتضمينهم فى المجلس الوطنى وزيادة الأموال المخصصة للحفاظ على مدينتى النجف وكربلاء، ومن جهة أخرى هاجم المجموعات الشيعية بضراوة وأجبرهم على الذهاب إلى المنفى(١). قدمت الحكومة العراقية حوافز مالية للمتزوجين من إيرانيات كى يطلقوهن، كما أخضعت رجال الدين الشيعة والمزارات والأضرحة والمساجد الشيعية لتحكم الحكومة، وجعلت من علماء الشيعة موظفين يتلقون رواتب من الدولة.

فى عام ١٩٨٢، أجبر محمد باقر الحكيم وشقيقه عبدالعزيز الحكيم (ابنا آية الله السيد محسن الحكيم) على الذهاب إلى المنفى فى إيران. قاما فى طهران وقم بتنظيم المجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق وأقرا بمبدأ ولاية الفقيه الذى تبناه الخمينى. وأثناء الحرب الإيرانية العراقية، قام الحرس الثورى الإيرانى بتجنيد عدد من أسرى الحرب وتدريبهم للانضمام إلى فليق بدر والقتال ضد جيش صدام وبخاصة فى إقليم كردستان. ولهذا السبب استهدف صدام الشيعة الذين تورطوا كنشطاء سياسيين نوى توجهات إيرانية وكثيرا من أعضاء المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق، وبخاصة أفراد عائلة الحكيم الذين

(١) من المنطقى القول إن تلك المجموعات التى هاجمها كانت هى المناوئة لنظام الحكم والموالية لإيران. (الترجمة)

سجنوا أو أعدموا. أيضا، هاجم صدام الأكراد بضراوة، ودمر مناطق كردية بأكملها وذلك لأن الحزب الكردى الديمقراطى واتحاد كردستان الوطنى تحالفوا مع إيران فى عامى ١٩٨٥- ١٩٨٦.

وعلى الرغم من بشاعات صدام ودعايته، لم تتماه الجماعات الشيعية العراقية مع الإيرانيين لأنهم كانوا يعتزون بهوياتهم القبلية والعشائرية والطبقية والحضرية والريفية والسياسية مثلما يعتزون بهوياتهم الشيعية. شعر كثيرون من الشيعة والسنة والأكراد أن التدخل الأجنبى خزيٌ وطنى وقومى. استشهد الكاتب والصحفى باتريك كوكبيرن برأى جندى عراقى شيعى كتذكرة قوية بالطبيعة المهجنة لتشكيل وإعادة تشكيل الهوية. قال الجندى «فى البداية شعر كثير من الشيعة أن صدام ينبغى له قتال الإسرائيليين بدلا من قتال الشيعة المسلمين وقتلهم. بيد أن بعد ذلك حينما رأينا أصدقاءنا يقتلون ويصابون وجّهنا نيراننا لقتل الإيرانيين».

وعلى الرغم من الإقصاء والتمييز ضدهم، ظل الشيعة بعامة موالين لبلدهم. وفى الواقع، لم يطالب الشيعة أبدا بدولة شيعية مستقلة رغم نضالهم من أجل إنهاء التمييز ضدهم. بيد أن وحشية صدام استمرت. هاجم فى عام ١٩٩١ المدن والبلدان ذات الغالبية الشيعية وقُتِل عشرات الآلاف فى النجف وكربلاء والحلة ولم تكتشف مقابرهم الجماعية إلا بعد سقوط صدام. فبعد انتفاضة الشيعة فى ذاك العام، وضع صدام آية الله الخوى قيد الإقامة الجبرية وتم قتل عدد من أفراد أسرته ومرافقيه وسجن بعضهم، على الرغم من أنه كان قد دعا إلى إنهاء الانتفاضة[١].

(١) آنذاك، قام الشيعة بحركات احتجاجية وأعمال شغب كادت ترقى إلى ثورة على الحكومة وهذا فى الوقت الذى كان الأطلسى بقيادة الولايات المتحدة قد قام بفرض عقوبات قاسية على العراق وحصارها وتحديد منطقة يحظر فيها الطيران. كان للشيعة مظالمهم، لكن تشكيل مجلس أعلى للثورة الإسلامية العراقية وفيلق بدر كانا يُعدّان بمثابة أفعال خيانة من وجهة نظر النظام القائم. كما أن الأطلسى لعب دورا كبيرا فى تأجيج «الانتفاضة» الشيعية فى الجنوب العراقى. (الترجمة)

شارك أنصار المجلس الأعلى للثورة الإسلامية العراقية وحزب الدعوة فى تلك الانتفاضة التلقائية وقام جيش صدام بقمعهم بضراوة، مات عشرات الآلاف أو التجأوا إلى إيران وفى حالات كثيرة تعرضت النساء للتعذيب والقتل بسبب قرابتهن لـ «أشخاص مطلوبين». وفى عام ١٩٩٤ وُضع آية الله السيستانى قيد الإقامة الجبرية، وفى عام ١٩٩٩ اغتيل آية الله صادق الصدر واعتقل أفراد أسرته ورفاقه المقربون.

اجتاح صدام الكويت عام ١٩٩٠ الأمر الذى أدى إلى فرض العقوبات على العراق من قبل مجلس الأمن الدولى. أدى هجومه على المجموعات الشيعية والكردية عام ١٩٩١ إلى مزيد من قرارات مجلس الأمن وخلق ما يسمى بـ «الملاذ الآمن» الذى كان يعنى واقعيا إقامة كيان كردى ذى استقلال ذاتى فى شمال العراق. نجم عن العقوبات أزمة إنسانية كان لها أثر كارثى على سكان البلد. فى عام ١٩٩٦، قدِّر عدد وفيات الأطفال بسبب تلك العقوبات بنصف مليون طفل، بما يفوق ضحايا هيروشيما من الأطفال، لكن وزيرة خارجية كلينتون، مادلين أولبرايت رأت أن ذلك ثمن يستحقه الهدف (من العقوبات). انخفضت ميزانية التعليم من ٥٠٠ مليون دولار قبل حرب الخليج عام ١٩٩١ إلى أقل من ١٠٪ من هذا الرقم وارتفع معدل الأمية من ٨٪ إلى ٤٥٪ بين عامى ١٩٨٥ و١٩٩٩، ونجم عن تدهور النظام التعليمى انخفاض المستويات التعليمية فى المدارس الثانوية والتعليم العالى. وطوال فترة العقوبات خضع الشعب العراقى لحملات قصف أدت إلى تدمير مصافى النفط ومنشآته وانبعاث آلاف الأطنان من الغازات والمواد السامة. أدى معدل وفيات الأطفال العالى وتدهور نظام الرعاية الصحية وسوء التغذية وانتشار الفقر إلى تدمير حياة ملايين العراقيين. هبطت معدلات عمل المرأة، والتى كانت الأعلى فى المنطقة، من ٢٣٪ قبل عام ١٩٩١ إلى ١٠٪ عام ١٩٩٧. أثر الفقر

وانهيار نظام الرعاية الاجتماعية والتبعات العمالية التى تمثلت فى صعود أيديولوجيا الجندر المحافظة بتزايد، أثّرت بخاصة فى وضع النساء فى المجتمع العراقى.

كان المقصود من برنامج النفط مقابل الغذاء الذى تم التوصل إليه بين الأمم المتحدة والحكومة العراقية تقليل معاناة الشعب العراقى. بيد أن هانس فون سپونك، مسئول الأمم المتحدة الأرفع مكانة والأكثر احتراما آنذاك، قدم استقالته احتجاجا على سياسات الولايات المتحدة ضد العراق وذهب إلى أن مجلس الأمن وحكومتى الولايات المتحدة وبريطانيا تجاهلت العقبات فى سبيل ذلك البرنامج ومعها معاناة الشعب العراقى بالرغم من البراهين القاطعة على أن الشعب العراقى كان يدفع ثمن جرائم لم يرتكبها بل ارتكبها صدام حسين. توفر لنا تجربة هيفاء زنجانا الكاتبة والناشطة العراقية، تذكرة مؤسفة لتلك الملابسات البشعة. كتبت تقول:

«فى ٦ ديسمبر ١٩٩٥، أرسلت ظَرفاً مُبطنا مقاس A4 إلى أولاد وبنات أخى بالموصل. كان الظرف يحوى حقيبة أقلام رصاص، وثلاث مسّاحات، وثلاث برّايات، وستة أقلام حبر، وقلمين لوضع العلامات، وقضيبا للصمغ، وقلمين جافيْن. كتبتُ على الظرف «هدايا أطفال». أُعيد إلىّ الظرف وختم عليه «لم نستطع إرسال طردك إلى العنوان المذكور بسبب العقوبات المفروضة على العراق». أُخبرتُ أن علىّ الاتصال بوزارة التجارة والصناعة البريطانية لمزيد من المعلومات».

منذ الأشهر الأخيرة فى عام ١٩٩٨، أصبح «تغيير النظام» هو سياسة الولايات المتحدة الرسمية تجاه العراق. بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١، خططت الولايات المتحدة وبريطانيا واستراليا وإيطاليا لغزو العراق وقاموا بقصف بغداد فى مارس ٢٠٠٣، ونفذوا ضربات جوية هائلة فى

أنحاء البلد. تم إلغاء برنامج النفط مقابل الغذاء ورفع العقوبات (جزئيا) حينما أزال قرار مجلس الأمن رقم ١٤٨٣ كثيرا من الالتباسات القانونية من طريق غزو العراق. فى مايو ٢٠٠٣، بمقتضى ذلك القرار أصبحت الولايات المتحدة وبريطانيا هى القوات المحتلة واعترفت الأمم المتحدة بإقامة مجلس الحكم المؤقت.

التغييرات فى الموازين الشيعية/ السنية فى هيئات الدولة:

كان لسقوط صدام والنظام البعثى عام ٢٠٠٣ بداية تغيير موازين القوة السنية الشيعية. بيد أنه يجب النظر إلى ظهور القيادات الشيعية كقوة سياسية على أنه نتيجة ثلاثة عوامل مهمة. أولا، وكما الحال فى إيران ولبنان ومصر وفلسطين، عجزت القوى القومية والليبرالية واليسارية العلمانية عن تقديم البديل. ثانى هذه العوامل هو اضطهاد هذه التنظيمات السياسية المنهجى من قبل الدولة فى البلدان المتحالفة مع الغرب. العامل الثالث كان هو إقصاء الجماعات الشيعية سياسيا واقتصاديا منذ الإطاحة بعبدالكريم قاسم عام ١٩٦٣ وتولى حزب البعث.

فى مارس ٢٠٠٣، حينما سارت قوات الولايات المتحدة للاستيلاء على بغداد، طلب آية الله السيستانى من المجموعات الشيعية عدم المقاومة. وحينما دخلت القوات الأمريكية إلى مدينتى النجف وكربلاء لم تواجه بأية مقاومة. اختار السيستانى تعاونا مشروطا مع الولايات المتحدة لأنه رأى فى سقوط صدام تحولا سياسيا كبيرا فى صالح الشيعة. فهو يعتبر الإسلام جزءا جوهريا من تكوين الهوية القومية العراقية وبالنسبة له فإن الإسلام هو أحد مصادر المرجعية الشرعية ولا ينبغى استبعاده من الكيان القانونى العراقى. بيد أن نموذجه للحكومة يختلف عن الأنظمة الاستبدادية فى المنطقة وعن نظام الحكم فى إيران إذ إنه يدعو إلى حياة سياسية إسلامية ديمقراطية وإلى حكم إسلامى ديمقراطى لا حكم

حكم استبدادى. ومن هذا المنطلق فهو يرفض مبدأ ولاية الفقيه الذى تبناه الخمينى. يرى أن مسئولية «المرجع» هو الدفاع عن الجماعات الإسلامية والمسلمة وليس ممارسة السلطة المطلقة فى جميع شئون الدولة، ويدعو إلى قيام حكومة تخضع للمحاسبة على أساس حكم الغالبية وتمثل الهوية الشيعية. كما أن نهجه لإقامة الجسور بين مختلف الطوائف والجماعات على نفس القدر من الأهمية وهو موقف أكسبه دعم الغالبية فى المنطقة. تعترف به كثير من الجماعات الشيعية فى لبنان وسوريا وإيران. وكما جاء فى الفصل الثانى، يدعم موقف السيستانى فى إيران عدد من رجال الدين وبخاصة آية الله شريعاتمادارى وآية الله منتظرى، وكما ذكرنا فى الفصل الرابع أيضا، فقد تصدى آية الله فضل الله الزعيم الروحى لحزب الله لمفهوم ولاية الفقيه. وتمثل ملايين الدولارات التى يتبرع بها الملايين فى المنطقة من أموال الأخماس والزكاة والأوقاف تصويتا على الثقة به.

وعلى الرغم من دعم السيستانى المشروط للاحتلال وسقوط صدام عام ٢٠٠٣، فقد أصدر فتوى ضد فكرة الأمريكيين التى كانت تقضى بأن يضع الدستور أشخاص عينتهم الولايات المتحدة ورأى بدلا من ذلك أنه ينبغى أن يضع الدستور أشخاص ينتخبهم الشعب العراقى. كما أصر على نظام «فرد واحد وصوت واحد». لقى ذلك قبولا من غالبية العراقيين، ولمدة خمسة أيام تظاهر العراقيون بأعداد كبيرة إلى أن قَبِل الأمريكيون اقتراحه. تناقش مع الإيرانيين ومع حزب الله من أجل إقناعهم أنه ينبغى عليه التعاطى مع الأمريكيين ببراجماتية كى يضمن حقوق الشيعة بدون تهميش أية طوائف أو جماعات أخرى. رأى كثير من العراقيين أن التنوع الشيعى/ السنى/ العربى/ الكردى ظل موجودا تاريخيا بالعراق، وبخاصة فى ظل حكم صدام. إلا أن «مأسسة»

يشكلون مجموعات الحداد الخاصة بهم المتمايزة عن المجموعات الإيرانية وكانوا يُسمّون مجموعات النجف أو مجموعات كربلاء. قويت هويتهم العراقية الشيعية سياسيا واجتماعيا فى قم. بعد سقوط صدام عادوا إلى العراق وشاركوا فى الحياة السياسية العراقية».

احتلال الولايات المتحدة للعراق يقوى وضع إيران

إن الروابط بين إيران والجماعات الشيعية فى العراق هى شأن تاريخى. بيد أن النقلة التى حدثت فى موازين القوة فى السلة السياسية لصالح القيادات الشيعية ترتبط بجلاء بدور الولايات المتحدة فى العراق ولا ترتبط بإيران. ظلت ثمة روابط بين مجلس الثورة الإسلامية العراقى وحزب الدعوة وبين إيران منذ الثمانينيات وفى ظل الجمهورية الإسلامية. لكل من الحزبين ميلشياته الخاصة مثل فيلق بدر ومجموعة المقاومة. أيضا، ومنذ ٢٠٠٣، تشكل جيش المهدى التابع لمقتدى الصدر و الذى له روابط مع إيران. بيد أن نفوذ إيران السياسى/ الدينى فى العراق أكثر تعقيدا مما يصوره به الغرب. ليست تلك التنظيمات مجرد امتداد لإيران تستطيع أن تستغلها وتتلاعب بها. إنها متنوعة ومستقلة عن إيران ومازالت تتنافس مع بعضها على السلطة وفقاً لرؤاها المختلفة حول بناء الدولة فى العراق.

فى الواقع فإن العلاقة المعقدة بين إيران والعراق سياسية أكثر منها دينية. وكما أسلفنا، فقد نشأ حزب «الدعوة» فى إيران فى الستينيات. وفيما بعد تركزت أنشطة مناصرى آية الله باقر الصدر وآية الله الخمينى ضد نظام البعث. كان «الدعوة» أكبر حزب إسلامى، قاعدته من رجال الدين أحيانا وأحياناً أخرى من غير رجال الدين. فى السبعينيات كان كثير من أعضاء حزب الدعوة وأنصاره أعضاء فى الحزب الشيوعى أيضا. كان ذلك التنظيم فى غالبيته ضد الاحتلال، بيد أن الأمريكيين

أقنعوا قياداته بالانضمام إلى مجلس الحكم المؤقت. كان إبراهيم الجعفرى الذى أصبح أول رئيس وزراء منتخب قد عاش منفيا فى إيران وأوربا لسنوات طويلة وكان المالكى الذى خلفه قد عاش سنوات طويلة أيضا منفيا فى إيران وسوريا.

وكما أسلفنا، فقد تشكل المجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق فى إيران عام ١٩٨٢، بدأ قادته فى التعاون مع الولايات المتحدة فى التسعينيات فيما كانوا مازالوا يتخذون إيران قاعدة لهم، وكانت العلاقات الأمريكية/ الإيرانية وقتئذ فى أدنى مستوياتها وكانت إدارة بوش قد صنّفت إيران على أنها عضو فى «محور الشر»، وزعمت أن إيران تستغل التنظيمات الشيعية العراقية لتعمل ضد الولايات المتحدة، على حين أن قيادات حزب الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق، والذين كان لهم علاقات وثيقة مع إيران، كانوا فى واقع الأمر يدعمون الاحتلال. فى ٢٠٠٣، قتل متطرفون من أهل السنة باقر الحكيم وخمسة وثمانين من أتباعه بتفجيرات فى مدينة النجف. أصبح شقيقه عبدالعزيز الحكيم الذى كان قد عاش منفيا فى إيران لسنوات طويلة، قائدا لمجلس الثورة الإسلامية فى العراق. وعلى الرغم من أن عبدالعزيز الحكيم يدعم إيران، إلا أنه يؤيد الاحتلال وله علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن إيران تدعم هذين التنظيمين، إلا أنها تعارض بقوة واتساق احتلال أمريكا للعراق.

أيضا، فإن لموقف آية الله العظمى السيستانى أهميته. وُلد فى إيران ويحمل المواطنة الإيرانية ويتحدث العربية بلكنة إيرانية لكنه غدا قائدا ذا شعبية لشيعة العراق. وكما سبق وأوضحنا، فهو برفضه مبدأ ولاية الفقيه يعتبر معارضا للنظام السياسى فى إيران، ومن هذا المنطلق، فهو

الطائفية بما فى ذلك من كيانات الدولة المختلفة هى ظاهرة جديدة بدأت مع احتلال العراق عام ٢٠٠٣. ومنذ وقتئذ، ظل السيستانى يدعو المليشيات ورجال الدين الشيعة لاجتناب الحرب الأهلية ووصف الانتقام من السنة بسبب الهجمات على الجماعات الشيعية بأنها خطيئة كبرى. ومن هذا المنطلق، اكتسبت رسالته القومية شعبية لدى غالبية العراقيين من مختلف الطوائف والمذاهب والقوميات. أيضا، رأى أنه ينبغى انتخاب الحكومة الانتقالية بإشراف من الأمم المتحدة.

فى عام ٢٠٠٥، شجع السيستانى الجماعات الشيعية المختلفة على الانضمام إلى الائتلاف العراقى الموحد والمشاركة فى الانتخابات وفى عملية وضع الدستور كمرشحين وناخبين. اشترك ملايين الشيعة والأكراد فى الانتخابات (بمعدل ٥٨٪ ممن لهم حق الانتخابات). بيد أن العرب السنة قاطعوا الانتخابات إذ شعروا أنهم مهمشون وأن الائتلاف العراقى الموحد هو تنظيم طائفى يساهم فى تأجيج الصراع. كانت الانتخابات انتصارا للشيعة إذ فاز الائتلاف بـ ٤٨٪ من الأصوات وبحوالى نصف مقاعد البرلمان (١٤٠ مقعد). فاز مجلس الثورة الإسلامية العراقية وحزب الدعوة بغالبية الأصوات وفاز مجلس الثورة بمعظم مقاعد البلديات. حصلت النساء على ٧٠ مقعداً من مقاعد البرلمان البالغ عددها ٢٧٥ مقعد (أى ٢٥٪ من مجموع المقاعد). أضفت هذه الانتخابات الشرعية على المجموعات الشيعية. أما تحدى هذه الشرعية فتتمثل فى النسبة المنخفضة لتمثيل العرب السنة (٢٪). لم يَنَل أنصار مقتدى الصدر الذين خاضوا الانتخابات مستقلين عن التآلف، بلاء حسنا. ونتيجة لذلك انضموا إلى التآلف فى الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٥ حيث حقق هذا التآلف انتصارا للشيعة ككل. فازوا بنسبة ٤٦٪ من مقاعد البرلمان وحصل أتباع مقتدى الصدر على أكبر نسبة من

التصويت الشعبى. شاركت بعض المجموعات السنية أيضا فى تلك الانتخابات حيث بلغت نسبة الناخبين من تلك المجموعات ٧٩,٦٪.

فى أبريل ٢٠٠٥، أصبح جلال الطالبانى، الزعيم الكردى الذى عاش فى إيران لسنوات عديدة، رئيسا للجمهورية العراقية فيما أصبح إبراهيم الجعفرى من حزب الدعوة رئيسا للوزراء ليخلفه فى عام ٢٠٠٦ نورى المالكى الأمين العام لحزب الدعوة واحتل محمود المشهدانى العربى السنى منصب رئيس البرلمان وخلفه فى عام ٢٠٠٩ إياد السمرائى العربى السنى. يوضح الحضور الشيعى الطاغى فى مواقع السلطة تغير ميزان القوة وتحوله لصالح الشيعة بدلا من السنة. عاد كثير من الشيعة العراقيين الذين عاشوا بالمنفى لسنوات طويلة، وبشكل رئيسى فى إيران وأصبحوا يتحدثون الفارسية عادوا للمشاركة فى حياة بلدهم السياسية. شغل بعضهم المناصب الحكومية، أو مواقع فى المجالس البلدية، وعمل بعضهم بالمساجد والمدارس الدينية، والحوزات ويتواجدون فى مختلف المدن من البصرة إلى بغداد. يمثل بعض هؤلاء النفوذ الإيرانى فى العراق ويعملون على تقوية الروابط بين البلدين. يشعر البعض بارتباط مع إيران من حيث العقائد الشيعية ويُلقون بمسئولية الحرب العراقية الإيرانية التى نجم عنها وفاة مليون ونصف المليون شيعى فى البلدين، يلقون بها على صدام حسين.

وعلى الرغم من ارتباطهم الدينى/ السياسى بإيران، فإن غالبية الشيعة الذين عاشوا فى إيران لسنوات طويلة حملوا معهم هويتهم العراقية إلى المنفى. يوضح آية الله مهاجرانى، السياسى الإيرانى هذا بقوله:

«خلق الشيعة العراقيون الذين عاشوا فى إيران طوال تلك السنوات مدينة «نجف» مصغرة فى قم. كانوا أثناء مراسم إحياء عاشوراء

يحظى بدعم الشيعة وأيضا المجموعات الأخرى فى العراق كما أن إدانته المتسقة للصراعات السنية الشيعية على نفس الدرجة من الأهمية.

وهكذا، دعمت إيران الحزبين اللذين يؤيدان الاحتلال (الدعوة ومجلس الثورة الإسلامية بالعراق) لكنها دعمت أيضا التيار الصدرى المعادى للاحتلال وجيش المهدى، جناحه العسكرى. ترجع الروابط بين مقتدى الصدر وإيران إلى ما بعد سقوط صدام مباشرة حيث قام بزيارة آية الله الخامنئى والحرس الثورى بإيران، وأسمى مليشيته جيش المهدى إضمارا منه أن تنظيمه يتبع الإمام الشيعى الثانى عشر الذى اختفى فى عام ٨٧٤، وخلافا لمجلس الثورة الإسلامية بالعراق وحزب الدعوة اللذين انضما إلى مجلس الحكم العراقى الذى شكلته الولايات المتحدة، رفض مقتدى الصدر الانضمام إليه وشجبه بصفته غير شرعى عين أفراده الاحتلال غير الشرعى. لا يعود الفضل فى موقفه المعادى للاحتلال إلى تأثير إيران، بل لأن سياسته التى تمزج الإسلام والأيديولوجيا القومية تلقى تأييدا شعبيا من غالبية العراقيين – يتكون أتباعه، بشكل رئيسى من سكان الأحياء الفقيرة فى بغداد والبصرة ويلقى أيضا الدعم من الشيعة التركمانيين بكركوك. وكما بينّا من قبل، فقد كان والده، آية الله محمد صادق الصدر، يؤمن بوحدة الشيعة والسنة وكان ذا شعبية فى أوساط الفقراء وأمد الشيعة الحضريين، وبخاصة فى مدينة الصدر التى يبلغ عدد سكانها ٢ مليون نسمة، بالموارد اللازمة. حينما قتل محمد صادق الصدر، واصل مقتدى أعمال والده الخيرية ودعا للوحدة بين الشيعة والسنة. زادت شعبيته عام ٢٠٠٤ حينما قاتل جيش المهدى ضد قوات الولايات المتحدة. تحدى السيستانى ومجلس الثورة الإسلامية وفيلق بدر ودخل جيشه مدينة النجف واحتل ضريح الإمام على. وخوفا

من شن هجوم أمريكى على الضريح، تدخل السيستانى وحزب الله (العراقى؟) وتفاوضوا معه على سحب جيشه من مدينة النجف.

فى عام ٢٠٠٦، دعم مقتدى الصدر وتياره رئاسة المالكى، لكن، وبضغط من واشنطن، شن المالكى هجوما مسلحا على الصدريين. فى عام ٢٠٠٧، انسحب الصدريون من الائتلاف العراقى الموحد فيما تم القبض على آلاف من أعضاء التيار ومناصريهم واعتبرت الولايات المتحدة التيار الصدرى الذى تدعمه إيران أكبر عقبة يواجهها الاحتلال. تنامت شعبية مقتدى الصدر، وفى عام ٢٠٠٨، انضم الآلاف إلى المسيرات الاحتجاجية والاعتصامات فى بغداد دعما للقضية التى يناضل من أجلها، ثم قامت قوات الأمن العراقية بدعم من قوات الاحتلال بشن هجمات وحشية على جيش المهدى. قررت إدارة بوش، وحكومة المالكى (حزب الدعوة) والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق الذى غير اسمه إلى المجلس الإسلامى العراقى الأعلى فى عام ٢٠٠٧، قرروا جميعا سحق التيار الصدرى. غادر مقتدى الصدر العراق ليقيم فى مدينة قم الإيرانية ويواصل دراسته الفقهية هناك. فى انتخابات ٢٠١٠، زعم إياد علاوى الذى ترأس الوزراء فى الحكومة الانتقالية لمدة تسعة أشهر فى عامى ٢٠٠٤- ٢٠٠٥، زعم أنه فاز على رئيس الوزراء نورى المالكى. حصل تياره، الحركة الوطنية العراقية على ٩١ مقعدا من مقاعد البرلمان البالغ عدده ٣٢٥ مقعد، بزيادة مقعدين على ما حصل عليه ائتلاف المالكى. فاز الائتلاف القومى العراقى، وهو كتلة شيعية تضم مقتدى الصدر، بسبعين مقعدا، وبذلك أثبت التيار الصدرى صلابة قاعدته الشعبية مرة أخرى وأنه ينبغى على من يتولى السلطة التعاطى مع حقيقة أن مقتدى الصدر قوة يجب أن تؤخذ فى الحسبان.

تُبين تلك الأحداث التاريخية أن إيران، وبدون شك، ظلت تعمل وفقا

لمصالحها وتدعم التنظيمات الشيعية بما يتفق مع أجندتها. بيد أن الولايات المتحدة بسياستها التى تقوم على توحيد الحكومة مع المجلس الإسلامى العراقى الأعلى ضد مقتدى الصدر تعمل على إذكاء فتنة شيعية/ شيعية واندلاع حرب أهلية شيعية فى العراق. وكما بين جوناثان سيتل، فهذا يماثل سياسة الولايات المتحدة فى فلسطين حيث تقوم بتمويل فصيل فتح الذى يرأسه محمود عباس وتسليحه ضد حركة حماس وتتسبب بذلك فى الانقسام الفلسطينى الفلسطينى. تتهم الولايات المتحدة إيران بدعم التيار الصدرى، بيد أن إيران تدعم أيضا حزب الدعوة والمجلس الإسلامى العراقى الأعلى، والفرق هو أن هذين التنظيمين يؤيدان الاحتلال فيما يعارضه الصدر وأتباعه.

أيضا فإن قضية الفدرلة، التى هى شكل آخر للطائفية، محل نزاع بين تلك التنظيمات. فى عام ٢٠٠٥، أيد الحكيم والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية بالعراق قيام دولة فدرالية فى وجود كونفدرالية شيعية فى المناطق الجنوبية تتشكّل بحيث يتاح لها نسبة من إنتاج حقول النفط الجنوبية.

رفض السيستانى، والدعوة، والصدر، والقوميون العلمانيون هذا المقترح وأدانوا أى شكل من أشكال الفدرالية. ظلت إيران دائماً ضد الفدرالية فى العراق لأنها ستعمل على زعزعة الأوضاع وتهدد أمن إيران، وبخاصة إذا قامت دولة كردية مستقلة لديها وفرة من احتياطى النفط. خسر الفدراليون انتخابات ٢٠٠٩، بضغط من ٨٦٪ من سكان العراق الذين يعارضون أى تقسيم للبلد.

من الجلى أن التأثير الدينى/ السياسى لإيران فى العراق يتمثل فى السيستانى والتنظيمات الشيعية بما فيها التيار الصدرى حيث تؤيد

بعض تلك التنظيمات الاحتلال وتعارضه الأخرى. أما دوافع إيران فتتعلق بشكل أساسى بالدفاع عن نفسها أكثر مما تتعلق بالهيمنة الشيعية أو الإقليمية. فواقع الأمر هو أن سقوط حكم طالبان فى أفغانستان وصدّام بالعراق كان لصالح إيران، وبخاصة فى العراق حيث تولى السلطة نظام يهيمن عليه الشيعة. وعلى الرغم من ذلك، تواجه إيران تهديداً مستداما بالتدخل العسكرى من جانب الولايات المتحدة وإسرائيل، أو حتى هجوم آخر من العراق. يذهب بعض المحللين إلى أنه إذا حدث تهديد لأمن إيران فستتولى الرد، وفى تلك الحالة ستعانى المنطقة بكاملها. وفى الواقع، فإن قوات الولايات المتحدة ما فتئت تقوم بعمليات عبر/ حدودية من شمال العراق وجنوبه. بحلول عام ٢٠٠٨، كان مدى المهام التى قامت بها السى آى إيه وقيادة العمليات الخاصة المشتركة ضد إيران وحجمها قد تعاظمت بموافقة الحكومة العراقية وتفويضها. مضت إيران، وهى على علم تام بهذا الوضع، فى دعمها للحكومة العراقية وجميع الأحزاب الشيعية. ولكى تؤمّن نفسها ضد أى تهديد من جانب الولايات المتحدة وحلفائها، فإن إيران ماضية فى إقامة تحالفات، غالبا ما تكون غير مستقرة، بل ومرتبكة أحيانا مع الحركات الشيعية بجميع أطيافها السياسية فى العراق. فى عام ٢٠٠٨، حينما أعلن المالكى أن العراق على غير استعداد لتكون قاعدة تنطلق منها العمليات السرية ضد إيران، أوضح هذا بجلاء أن إيران قد نجحت فى إقناع الحكومة العراقية بعدم السماح للولايات المتحدة باستخدام العراق قاعدة للهجوم على إيران.

أوجه النقد للدور الإيرانى:

يتفق عراقيون كثيرون بالداخل العراقى وبالشتات بمن فى هذا المجموعات الشيعية فى طهران ودمشق ولندن، يتفقون على أن الكارثة

الكبرى التى حلت بالعراق هى نتيجة الاحتلال الأمريكى، لكنهم أيضا ينقدون بشدة موقف إيران بل ويبدون العداء له. فهم يرون أن الحكومات الثلاث جميعها مسئولة عن استمرار الفساد والعنف والتدهور الاقتصادى. تقول زينب، الأكاديمية العراقية.

«أمل الشعب، بعد سقوط صدام، فى إعادة الإعمار والديمقراطية. بيد أن العراق الآن أصبح «سفرة» مفتوحة يدخل إليها الجميع لتحقيق مصالحهم لا مصالح الشعب العراقى. غدت العراق ميدانا للمعارك بين إيران وأمريكا. تتنافس كل منهما على تمويل المجموعات المختلفة وتُنفق الأموال على الأسلحة التى يقتلون بها بعضهم، حتى أن الشيعة يقتلون الشيعة ويقتل أهل السنة السنة الآن، بنفس الأسلوب الذى يقتل به الشيعة السنة ويقتل به السنة الشيعة».

وفى رد على هذا، يقول السياسى الإيرانى آية الله مهاجرانى إن:

«إيران تدعم الحكومة العراقية بصفتها ممثلة للعراقيين جميعهم لا للشيعة فقط. وإذا كانت الحكومة العراقية لا تعمل لصالح الشعب العراقى، ولا حتى لصالح الشيعة، فإن هذا مرده هو الاحتلال الأجنبى الذى ترزح العراق تحته. لم تعترف إيران أبدا باحتلال العراق، وظلت، منهجيا، تطالب بانسحاب القوات الأجنبية. قبلت الحكومة العراقية بالاحتلال. لقد فشلت الولايات المتحدة فى العراق وأفغانستان وأوجدوا أوضاعا كارثية فوضوية. بيد أن إيران لا تستطيع القيام بمهام الحكومة العراقية للشعب العراقى، لكن ينبغى عليها فى نفس الوقت دعم الحكومة العراقية».

يذهب سامى رمضانى إلى أنه لا يمكن المساواة بين إيران والولايات المتحدة إذ إن ما تقوم به إيران هو رد فعل على وجود الولايات المتحدة بالعراق، كما أنه ليس بوسعنا أن ننسى مساندة الغرب لصدام حسين

إبان الحرب الإيرانية العراقية بهدف سحق الثورة والقضاء عليها. بيّن لى أننا:

«إذا أخذنا هذه الخلفية فى الاعتبار سنفهم سبب رد فعل إيران على الولايات المتحدة فى العراق. إيران هى الطرف المُهدَّد ويحتمل للعراق أن تكون أكبر قاعدة للهجوم على إيران. ثمة ٥٠٠٠ من أفراد تنظيم مجاهدى خلق بالعراق سلّحتْهم الولايات المتحدة ودربتهم، وهم على استعداد لتنفيذ «تغيير النظام» بإيران. وفى مناسبات عدة، قاموا بالعبور من معسكرهم إلى الداخل الإيرانى لتنفيذ الاغتيالات والتدمير. تدخل الوحدات الإسرائيلية إلى إيران من كردستان، وتقوم إسرائيل بتسليح الحزب الكردستانى».

تقوم الولايات المتحدة، ومن أجل تقويض المقاومة الوطنية ضد الاحتلال، بتمويل المليشيات السنية، وتأجيج المشاعر المعادية للشيعة ولإيران. وعلى المستوى الإقليمى، أوجدت الولايات المتحدة تحالفا معاديا لإيران من الدول العربية ذات القيادات السنية، وعلى المستوى الدولى، تقوم بتصوير إيران على أنها تهديد إقليمى لكى تقوم هى بدور رجل الشرطة فى منطقة الخليج بذريعة التوسط فى الخلاف الشيعى السنى المُصنّع عن عمد. يواكب هذا حملة دعائية عنصرية معادية لإيران فى الإعلام العربى. وعلى الرغم من هذا، تتمتع إيران بشعبية لدى معظم شعوب الشرق الأوسط على الرغم من الاختلاف المذهبى. بيد أن لمعظم العراقيين نظرة إلى إيران تختلف عن نظرائهم فى فلسطين ولبنان حيث يشعرون أن إيران قد خذلتهم بل وخانت قضيتهم بنفس الأسلوب الذى يشعر به الفلسطينيون واللبنانيون بخيانة الأنظمة العربية الموالية للغرب لقضاياهم.

لا يجرى العمل وفقاً لنموذج حزب الله اللبنانى بنجاح فى العراق.

فكما أسلفنا في الفصل الرابع، أدى تآلف حزب الله مع قطاع كبير من السنة والمسيحيين إلى زواء الصراعات المذهبية والسنية؛ هذا بالإضافة إلى أن حزب الله يقوم بتوفير الرعاية الاجتماعية لمختلف الجماعات وقاد مقاومة ناجحة ضد إسرائيل. بيد أن الحكومة التي يهيمن عليها الشيعة في العراق لا تستطيع، بصفتها تدير دولة عميلة للولايات المتحدة، حل الصراعات بين المجموعات السنية والشيعية بل إنها غير راغبة في ذلك. تشتبك العصابات الإجرامية المسلحة في هجمات ضارية لحساب الفصائل السياسية وتتصارع مع بعضها للسيطرة على تجارة السوق السوداء في النفط. كثير منها يلجأ إلى العنف والجريمة بانتهازية ضد الجماعات المختلفة من أجل مكاسبها المادية. انتشرت أنشطة تهريب النفط والمخدرات والخطف؛ فيما تتدهور سريعا أساسيات الحياة مثل إمدادات المياه والكهرباء، والرعاية الصحية والتعليم وفرص العمل؛ وترتكب أعمال القتل الطائفية والقتل على الهوية من قبل المتطرفين السنة والشيعة معا.

في عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، كانت أعمال العنف الطائفية والمذهبية يقوم بها جماعات من غير العراقيين بشكل أساسي، مثل تلك المجموعة التي كان يقودها أبومصعب الزرقاوي الأردني المرتبط بالقاعدة التي شنت أبشع الهجمات عنفا ووحشية ضد مختلف الجماعات، لكن غالبيتها كان موجها ضد الشيعة ومنذ وقتئذ تعاظمت الصراعات الطوائفية وامتدت إلى خارج بغداد. يقوم بالهجمات الإسلاميون السنة والبعثيون والإسلاميون الشيعة. يعتقد كثير من العراقيين أن الدولة العميلة للولايات المتحدة والتي يهيمن عليها الشيعة وتدعمها إيران هي المسئولة عن هذا الصراع العنيف، وأيضا فهي تتحمل مسئولية الفساد وتردي الأوضاع الاقتصادية.

يوجد حوالى ٢ مليون مسلح ينتمون إلى تنظيمات نشطة بالعراق، وهؤلاء مزيج من قوات الاحتلال، والمرتزقة الأجانب المتعاقد معهم، والقوات العراقية التى يدعمها الاحتلال، والمليشيات العراقية السرية التى تتحكم فيها الولايات المتحدة، ومجموعات الخطف الخاصة، والمليشيات وقوات المقاومة التابعة لأحزاب مختلفة. تختلف دقة المعلومات المتاحة عن الضحايا بدرجة كبيرة. تقول هيفاء زنجاتا إن عدد القتلى العراقيين منذ عام ٢٠٠٣ بلغ مليون شخص. يعانى الناس من مختلف الإصابات نتيجة استخدام الولايات المتحدة والبريطانيين لقذائف اليورانيوم المنضب. تم تدمير بنية البلد الأساسية بكاملها، وثمة المئات من المواقع الخطرة فى بغداد وحدها نتيجة إلقاء القنابل العنقودية. بحلول عام ٢٠٠٥، كانت المياه النظيفة متاحة لنسبة ٢٣٪ فقط من العراقيين، وفى عام ٢٠٠٦، هبط معدل توليد الكهرباء إلى ٤١٠٠ ميجاوات، وكلا الرقمين أقل كثيرا كثيرا من المستويات التى كانت عليها قبل الغزو. تعاظمت معدلات البطالة، وغدت غالبية الشعب على حافة الإملاق. ومثلما هو الوضع فى أفغانستان، لا يستفيد الشعب العراقى من المليار دولار التى تمول بها الولايات المتحدة إقامة المنظمات غير الحكومية والديمقراطية، ولا يستفيد أيضا من اقتصاد السوق الحر الذى تشجعه الولايات المتحدة والمؤسسات المالية الدولية. فقد استُخدمت تلك الحجج ذريعة لاحتلال الولايات المتحدة العسكرى للعراق ولا يتربح منها سوى الكوربورشنات والشركات الدولية التى تستغل موارد العراق وتستنفدها.

وكما هو الوضع فى أفغانستان، لم يحدث سوى تغيير طفيف جداً فى قضايا الجندر فى العراق، هذا على الرغم من أن النساء يشغلن أكثر من ربع مقاعد البرلمان، تخشى النساء العراقيات أيضا من صعود التطرف الدينى ومن هيمنة الإسلاميين المحافظين على مؤسسات الدولة. لا يردن

تصدير ممارسات الجندر المحافظة السائدة فى إيران مثل التحجب الإجبارى.

تقول الصحفية نجد:

«يشجع السياسيون الشيعة الحجاب. أخبرنى بعضهم أننى إذا ارتديت الحجاب سأرقى إلى منصب بارز فى إعلام الدولة لكنى رفضت العرض. الحجاب مسألة شخصية بالنسبة للنساء، وإننا نحن من نقرر إن كنا نحتاج إلى ارتدائه أم لا. لا أن يجبرنا السياسيون أن نرتديه من أجل أن نترقى».

تعاظم العنف ضد من يعملن بالسياسة. تشمل أمثلة الهجوم على النساء داخل مؤسسات الدولة اغتيال عقيلة الهاشمى وكانت عضوا فى مجلس الحكم العراقى عام ٢٠٠٣؛ واغتيال أمل المعملاش وكانت تعمل مستشارة لوزارة البلديات والأشغال العامة فى عام ٢٠٠٤؛ ومحاولة اغتيال سلمى الخافجى وكانت أيضا عضوا فى مجلس الحكم العراقى عام ٢٠٠٤. بالطبع تحدث مئات الهجمات يوميا على عامة النساء ولا يرد لها ذكر. تقاتل ميليشيات الحكومة، والجماعات القبلية وميليشيات الطوائف (السنية والشيعية) بعضها. تم تدمير المرافق العامة والمؤسسات العامة مثل المرافق والمؤسسات التعليمية والصحية التى كانت قائمة فى عهد صدام. أدى هذا بدوره إلى ظهور شبكات طائفية جديدة وقوية تتصارع مع بعضها، ليس على القضايا الدينية، بل على السلطة السياسية. وفى ظل هذه الأوضاع، يرى الكثيرون أن إيران تتحمل مسئولية جزئية. بحلول ٢٠٠٦، كان ثمة ٢ مليون عراقى اقتُلعوا وهُجروا داخليا، فيما التجأ ٢ مليون آخرون إلى خارج العراق. ووفقا للهلال الأحمر العراقى، فإن ثلثى المقتلعين والمهجرين هم من النساء والأطفال. بينت لى أحلام التى شهدت أزمة النازحين فى سوريا قائلة إنه:

«منذ الاحتلال أجبر الكثيرون على مغادرة العراق. قُتِل الكثيرون أثناء

عملية النزوح، واغتُصبت نساء كثيرات، وعاش الكثيرون فى المناطق الحدودية. ثمة أعداد كبيرة ممن أجبروا على الهجرة يعيشون فى بلدان الجوار فى أوضاع رهيبة. يعانى النازحون من مشاكل كثيرة، وبخاصة الأسر التى تقوم عليها النساء وآخرون من المعرضين للخطر ومن هم بحاجة إلى رعاية، ولا يوجد أحد يعى حتى أوضاعهم، ولا يتحدث عنهم أحد».

بل إنه حتى فى المناطق الكردية حيث مستوى العنف منخفض نسبيا وتوجد درجة من الاستقرار الاقتصادى، يحتج الناس ضد الفساد والقمع السياسى وعدم المساواة الاقتصادية. قام الناس فى حلابجة بإحراق متحف تذكارى قائلين إن الحكومة لا تفعل شيئا إزاء عدم وجود مرافق أو موارد وإنهم يأتون مرة كل عام بسياراتهم الفارهة لينعموا بمشاهد معاناة الناس.

قالت إحدى النازحات، واسمها أم إيمان إن:

«الطالبانى والبرزانى يديران الحياة السياسية فى كردستان. يتحكمان فى جميع الموارد ولم يفعلا سوى أقل القليل لصالح الأكراد العاديين. ليست لدينا كهرباء أو مياه، ولا يوجد سوى أنشطة اقتصادية قليلة جدا. غدت الممارسات القبلية القديمة مثل القتل بسبب الشرف، والزيجات الإجبارية وكبار السن الذين يتزوجون صغار الفتيات، غدت هى المعايير الاجتماعية. وإضافة إلى المشاكل الاقتصادية، أوجدت كل هذه العوامل أوضاعا بشعة بالنسبة للنساء مثل الأوضاع التى تعانى منها بقية النساء فى أنحاء العراق. نرى فى الجزء الكردى جرائم ترتكب ضد النساء، على حين أن انعدام الأمن فى أنحاء العراق الأخرى لا يسمح برؤية هذه الجرائم. الناس يقتلون يوميا، وتقتل النساء يوميا وتباع الفتيات فى أسواق الدعارة».

يقوم الجنود من القوات الغازية وقوات الشرطة العراقية باغتصاب النساء العراقيات على نطاق واسع أثناء الغارات التى يشنونها على البيوت وعمليات الاعتقال التى يقومون بها. تُغْتصب النساء فى المعتقلات وداخل بيوتهن بعد اعتقال ذويهن من الذكور، وبعد أن يُسَقن إلى أقسام الشرطة بتهمة مساعدة المتمردين. يمارس التعذيب، على غرار أبوغريب وغيره من الأنواع فى جميع السجون والمعتقلات العراقية. كان ما فعله منتظر الزيدى الصحفى الشاب الشيعى الاشتراكى حين ألقى حذاءه فى وجه بوش فى ديسمبر ٢٠٠٨ قائلاً: «هذه قبلة وداع لك يا كلب من الأرامل والأيتام والقتلى العراقيين» كان يرمز إلى غضب الشعب وتحديا للحكومة العراقية المدعومة من الولايات المتحدة. أصبح الزيدى بطلا على المستوى القومى والإقليمى وفى أعقاب سجنه اندلعت التظاهرات المؤيدة له والمعادية للحكومة والاحتلال فى النجف والفلوجة وبغداد والموصل وطالبت بإطلاق سراحه.

بالتأكيد لا يمكن مقارنة دور إيران بدور الولايات المتحدة فى العراق. بيد أن كثيرا من العراقيين يرون أن ثمة احتلالاً مشتركاً من قبل البلدين. قالت لى عائشة أيضا:

«يماثل الوضع أوضاع الحرب الباردة حيث يتعاون الطرفان على قضايا معينة ويتقاتلان ضد بعضهما وفقط عامة الناس هم من يعانون. تستخدم إيران والولايات المتحدة العراق لتسوية خلافاتهما. إن هذا أكثر من مجرد رياء، إنها سياسات القوة والعراقيون هم الضحايا».

بالطبع فإن مقاومة الاحتلال والحكومة التى تدعمها إيران تضطلع بها أيضا تنظيمات مدنية حقه. فى عام ٢٠٠٤، تم إنشاء مؤتمر مؤسسة العراق الوطنية. وكانت تلك منظمة معارضة لنظام صدام وللاحتلال ولأى تقسيمات على أساس فروق طائفية أو دينية أو إثنية. الشيخ جواد

الخليلي، عالم الدين الشيعي المرموق، هو أمينها العام ومن بين الأعضاء المؤسسين مثنى الضاري المتحدث باسم رابطة علماء المسلمين السنة وومميض نظمي القومي العربي العلماني. شجبوا الإرهاب ودعوا إلى إنهاء الاحتلال ووحدة الشعب العراقي. بيد أنهم ليس لديهم جناح عسكري ويعملون على المستوى السياسي فقط. وعلى الرغم من أنهم يخاطرون مخاطرة كبرى لأنهم ناشطون، وأن تأثيرهم محدود، إلا أنهم يواصلون العمل في بغداد.

أيضا أقيم تنظيم نسائي يسمى «العمل معا» ومقره لندن هدفه إيقاظ الوعي حول قضايا النساء في ظل الاحتلال. فتحت ميسون بشاشي، وهي صانعة أفلام، مدرسة لصناعة الأفلام في بغداد عام ٢٠٠٤ إلا أنها اضطرت لإغلاقها في عام ٢٠٠٧ بسبب الصراعات الطائفية لكنها أعادت فتحها مرة أخرى في عام ٢٠٠٩، دربت مدرستها ثمانين سينمائيا/ سينمائية من الشيعة والسنة والأكراد والعلمانيين صنعوا أحد عشر فيلما وثائقيا. توضح جهود الأفراد والمجموعات لتوحيد مختلف التيارات كيف أن العراقيين يحدوهم الأمل في مستقبل أفضل. تدمر الحروب والصراعات والاحتلال الأجنبي والاجتياح مختلف المجموعات السكانية. تلعب النساء بخاصة أدوارا مهمة لتوليد الشبكات (الاجتماعية) وإرساء المعايير في جماعاتهن، وبهذا الأسلوب فإن ثمة رفضا جميعا لقوات الاحتلال الأجنبي وللقوات الطوائفية والمذهبية وبخاصة في بغداد حيث تقام الأسوار لفصل الأحياء الشيعية عن السنية.

علقت هناء، ناشطة حقوق النساء ومؤسسة جمعية «إرادة النساء العراقيات» عام ٢٠٠٢، بقولها:

«ظل ثمة اختلاف بين الشيعة والأكراد والسنة، فقهيا وتاريخيا، وثقافياً، لكن هذا الاختلاف تم تسييسه منذ الاحتلال. لسنوات طويلة

ظلت هناك تزاوجات وتناغم بين تلك المجموعات. كان الاحتلال هو من خلق الصراعات العنيفة بينها وحتى اليوم، فإن الجماعات السنية والشيعية لا يقتلون بعضهم، فهناك مجموعات أوجدها الاحتلال والحكومة تقاتل بعضها وتقتل بعضها. وفى منظمتى وحتى يومنا هذا تعمل كثير من النساء الشيعيات والسنيات والكرديات جنبا إلى جنب ويحاولن تقديم المساعدات للنساء من مختلف الأطياف ممن هن بحاجة إلى مساعدة. قامت الحكومة وقوات الاحتلال بإقامة جدران إسمنتية لفصل المجموعات المختلفة عن بعضها وقد خلقت هذه الجدران التوترات والصراعات. لكن الناس يحاولون كسر تلك الجدران التى فُرضت عليهم بشتى الطرق مثل إقامة حفلات الزفاف على كل من جانبى الجدران فى آن».

أيضا، رفعت اتحادات عمال النفط والموانئ أصواتهم. سيطروا على الموانئ وكبرى حقول النفط فى احتجاج منهم على «قانون النفط» الجديد الذى، وبناء عليه، تجرى خصخصة صناعة النفط والسماح للشركات الأجنبية الدولية بالتحكم فى إنتاج النفط العراقى وتسويقه. يقول سامى رمضانى:

«تم وضع مخطط قانون النفط فى الولايات المتحدة قبل غزو العراق، حيث تشكلت لجنة فى وزارة الخارجية الأمريكية ضمت عددا من العراقيين (الموجودين فى الولايات المتحدة). وضعوا قانون النفط فى عام ٢٠٠٧، الذى يعنى أن تتحكم كوربورشنات النفط الأجنبية فى الإنتاج والمبيعات والأسعار، وتستولى على ما بين ٧٠٪ و٨٠٪ من الأرباح. تعارض غالبية الشعب هذا القانون ولعب عمال النفط دورا مهما فى معارضته. نتيجة لذلك، لم يتم بعد تمرير القانون، لكن الحكومة وقعت العقد مع شركة BP عام ٢٠٠٩. ثمة خلاف أيضا بين الحكومة والقيادات الكردية حيث يريدون الاستمرار فى الاتفاق الحالى الذى

يخصَّص بمقتضاه ١٧٪ من عائدات النفط للمنطقة الكردية والسكان الأكراد».

قامت الولايات المتحدة بصفتها القوة العظمى بتدمير العراق كبلد عامل فاعل واستخدمته قاعدة تهدد منها سيادة إيران. على الجانب الآخر، قامت إيران بمناورات للتواجد بالعراق لمجابهة التهديد المحتمل من الولايات المتحدة. عمل هذا المزيج على تحويل العراق إلى فسيفساء من الفصائل المتناحرة فيما تُنتهك أعداد هائلة من الناس. وعلى الرغم من أن للشرائح المختلفة فى المؤسسة السياسية الإيرانية آراء متنوعة بشأن العراق، بيد أنه ثمة إجماع فى إيران على الحاجة لخروج الولايات المتحدة من العراق. وفى نفس الوقت فقد عملت الحكومات الإيرانية المختلفة ما فى وسعها لإجبار الولايات المتحدة على التعاون معها.

بيد أنها تحققت أنه طالما استمرت إيران فى دعم القوى المناهضة للاحتلال، لن ترحل الولايات المتحدة من العراق أو تُنهى احتلالها. من ثم، بدأت إيران فى التراجع عن دعم التيار الصدرى والقوى الأخرى المناهضة للاحتلال. وبناء على ذلك سلمت الولايات المتحدة معسكر أشرف إلى الحكومة العراقية كجزء من خطة للانسحاب من العراق. عمل هذا فى صالح إيران إذ إن منظمة مجاهدى خلق كانت تستخدم ذلك المعسكر لشن الهجمات ضد إيران.

فى عام ٢٠٠٩، أعلنت بريطانيا والولايات المتحدة جدولا زمنيا للانسحاب من العراق، بيد أن غالبية العراقيين يتشككون فى أن الانسحاب سيكون كليًا. مازالت القوات المسلحة البريطانية موجودة فى بعض القواعد، كما أن ١٣٢٦١٠ من المسلحين الأجانب المتعاقد معهم سيظلون متواجدين، وقامت قوات الولايات المتحدة بإعادة ترسيم حدود بعض المدن مثل الموصل وبعقوبة وأعلنت أنها ستظل هناك حتى أغسطس ٢٠١٠. وفى ظل تلك الأوضاع، وطالما بقيت الولايات المتحدة بالعراق،

ستشعر إيران أنها مهددة وستستمر فى دورها هناك. وفى حوار لى معه، يقول سامى رمضانى:

«تهدف استراتيجية الولايات المتحدة إلى وجود دولة عميلة تابعة فى العراق، لكنها لن تستطيع تحقيق ذلك من خلال صناديق الاقتراع بل من خلال تواجد فيزيقى قوى لها هناك. يزعمون أنهم يعملون على بناء الجيش العراقى وقوات الأمن والمؤسسات الأخرى، لكن تلك الجهات يعمل بها عدد جد كبير من «المستشارين» الأمريكيين، وهذا وضع لا يتقبله العراقيون وسيستمرون فى مقاومتهم ضد وجود القوات الأجنبية. ولهذا السبب، لن تنسحب الولايات المتحدة من العراق فى المستقبل المنظور إلا إذا غيروا سياستهم تجاه العراق والشرق الأوسط أى إذا تركوا الشعب العراقى يعمل تحالفاته الخاصة مع البلدان المجاورة مثل إيران ولبنان وفلسطين. من ثم، فإننى لست متفائلاً على المدى القصير، لكننى واثق أننا سنستعيد استقلالنا على المدى البعيد».